أغراض الكناية وأثرها التعبيري في سورة يوسف

أ. م. د. أحمد عبيس عبيد

ملخص البحث

الكناية فن بلاغي رفيع المستوى، له أثر باهر في جمال الصورة البيانية واتساع مضامينها، ودقة تعابيرها، وهي مظهر من مظاهر البلاغة الفاعلة في التعبير عن المعاني بطريقة أجمل وأوكد وأبلغ بحكم أنها تأتي ومعها برهانها، ولا شك أن أثرها سيكون أقوى في كلام الباري عز وجل الذي أعجز العرب عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

جاء بحثنا هذا ليترسم خطى الكناية في سورة يوسف ويتعقب أغراض الكناية وأثرها التعبيري في الآيات، وقد جرى البحث وفق محاور أساسها موضوعات السورة وهي حسب الترتيب (مدخل في الكناية، كنايات عن أفعال الفهم والإدراك، كنايات المكيدة بيوسف، كنايات عن الحزن والوجع، كنايات عن الجماع، كنايات عن التأهيل والتمكين، كنايات أخرى متفرقة، وأخيرا محور في فاعلية الكناية في السورة) والهدف من البحث هو بيان أغراض الكناية في سورة يوسف والأداء التعبيري فيها وأثرها في المعاني وقيمتها في التأثير في المتلقي.

الكلمات المفتاحية

أغراض الكناية، الأثر التعبيري، سورة يوسف، البلاغة، تأكيد المعنى، التعبير المباشر وغير المباشر

Abstract

The metonymy is a high-level rhetorical art, which has a remarkable effect on the beauty of the poetic image, the breadth of its contents, and the accuracy of its expressions. It is an aspect of effective rhetoric in expressing meanings in a more beautiful, confirmed and informed way because it comes with its proof, and there is no doubt that its impact will be stronger in the words of the Almighty God, Which the Arabs were unable to achieve.

This research came to draw the lines of the metonymy in *Surah Yusuf (Joseph)* and trace the purposes of the metonymy and its expressive effect in the verses. The research was conducted according to aspects based on the themes of the surah, which are (introduction to metonymy, metaphors for acts of understanding and awareness, metonymy of Joseph's plot, metonymy for sadness and pain, metonymy for sexual intercourse, metonymy for rehabilitation and empowerment, other scattered metonyms, and finally a focus on the effectiveness of the metonymy in the surah). The aim of the research is to clarify the purposes of the metonymy in *Surah Yusuf (Joseph*), its expressive performance, its impact on meanings, and its value in influencing the recipient.

Key words

The purposes of metonymy, expressive effect, Surah Yusuf (Joseph), rhetoric, confirmation of meaning, direct and indirect expression

المقدمة **بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله الذي نزّل كتابه العظيم بلغتنا العربية الجميلة فأكرمنا وأتاح لنا قراءة النص القرآني والتدبر في أساليب نظمه وطبيعة سبكه التي أعجزت العرب وغيرهم عن مشاكلته، وتحداهم بلغتهم وبأساليبهم؛ هذا النظم القرآني الباهر دعانا إلى أن نخوض في أسلوب بلاغي فريد؛ يقدم لك المعنى بطريقة أبلغ وأقوى وأعمق مع الابتعاد عن الطريقة المباشرة في التعبير، وأعني أسلوب الكناية؛ أسلوب يقدم لك المعنى مشفوعا بالدليل أو البرهان، فيؤثر في النفوس؛ لأنه يحمل في طياته التلميح والإشارة والرمز والإيحاء، وهو أمر تحبذه النفوس وتستلذه الأطباع، ولا سيما لمتذوقي النصوص الأدبية؛ فيدرك عندها عظمة النص القرآني وبلاغته ومستوى البيان فيه.

وقد درسنا الكناية في هذا البحث على أساس موضوعات السورة، وفق محاور؛ جاء المحور الأول بعنوان مدخل في الكناية، وحمل الثاني عنوان كنايات عن أفعال الفهم والإدراك، وخاض الثالث في كنايات المكيدة بيوسف، والمحور الرابع في الكنايات عن الحزن والوجع، والخامس في الكنايات عن الجماع، تلاه محور سادس في الكنايات عن التأهيل والتمكين ثم محور سابع في كنايات أخرى، وأخيرا محور في فاعلية الكناية في السورة. وغايتنا التعرف على أغراض الكناية وأثرها التعبيري في بيان المعاني وتعزيزها وتكثيفها. وقد تجاوزت التقسيم التقليدي المألوف للكناية(عن صفة، عن موصوف، عن نسبة)؛ بحثا عن الجدة في تناول الكناية، ولأن الخطة التي اتبعتها هي ما رأيتها تحقق غاية البحث.

وهنا أودُّ أن أؤكد على قضية مهمة وهي أن القارئ قد يجد شاهدا أو أكثر للكناية في سورة يوسف في بحث أو دراسة سابقين لكن بشكل جزئي أو مقتضب، وبطريقة مختلفة تماما عمّا جرى في هذا البحث الذي استقصى الكنايات في هذه السورة وصنّفها، واختلف البحث عن غيره من حيث المنهجية وخطة البحث، ومن حيث الأسلوب؛ فلكل باحث أسلوبه الخاص وآلياته وأدواته.

أولا: مدخل في الكناية

الكناية في اللغة أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنّى عن الأمر بغيره يكني كناية: إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه، ويقال: تكنّى وتحجَّى إذا تستّر[i] وكنى عن كذا: تكلم بما يُستدلُّ به عليه ولم يصرح[ii]. وفي الاصطلاح هي عند عبد القاهر الجرجاني "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه"[iii]. وقيل هي "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه"[iv].

والكناية عند ابن الأثير "هي اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه، كاللمس والجماع، فإن الجماع اسم موضوع حقيقي، واللمس كناية عنه، وبينهما الوصف الجامع، إذ الجماع لمس وزيادة، فكان دالا عليه بالوضع المجازي"[v]. وإنّ الكناية فن من فنون البيان لا يقوى عليه إلّا من تمرّس بفنون القول، وقيمتها في طريقة سبكها وكثافة معانيها وأثرها في المتلقي، يقول الجاحظ "أوما علمت أنّ الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الافصاح والكشف"[vi]. وهي أبلغ في التعظيم وأدعى إلى التقديم[vii].

وتوفرُ الكناية في كلام المرء دليلٌ على امتلاكه ناصية البيان، و" قد يستعمل الناس الكناية، وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة، يريدون أن يظهر المعنى بألين اللفظ، إمّا تنويها وإمّا تفضيلا، كما سموا المعزول عن ولايته مصروفا، والمنهزم عن عدوه منحازا، حتى سمّى بعضهم البخيل مقتصدا ومصلحا، وسُمّي عامل الخراج المتعدي بحق السلطان مستقصيا"[viii]. ومن خصائص الكناية أنّها تمكّن المرء أن يقول كل شيء، وأن يعبّر بالرمز والإيحاء عن كل ما يجول بخاطره حراما كان أو حلالا، حسنا كان أو قبيحا، وهو غير محرج أو ملوم[ix].

ومن مميزات الكناية أيضا المبالغة والبعد عن المباشرة، والمبالغة في الصفة أو الصفات سبيل إلى تثبيتها في نفوس المتلقين، ولها قيمة إبلاغية تقدمها اللمحة الدالة، والمتلقي عندما يتوصل إلى المعنى المكنّى عنه يشعر بلذة الكشف ومتعة الاستقصاء، ويتقرر المعنى لديه ويتأكد، وأيضا هناك متعة بسبب من كمية الصور الذهنية التي يستحضرها المتلقي تباعا وكأنّها ومضات تتكثف وتتراكم لتشكل معنى ثابتا يطمئن إليه العقل، ويتأثر به القلب[x].

والكنايات لها مواضع "فأحسنها العدول عن الكلام الدون إلى ما يدل على معناه في لفظ أبهى ومعنى أجلّ، فيجيء أقوى وأفخم"[xi]. ولها موقع عظيم في الكلام فهي تكسب المعاني جمالا وديباجة وكمالا وتحرك النفوس إليها، وتدعو القلوب إلى فهمها[xii]. و"هي مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلّا من لطف طبعه، وصفت قريحته، والسر في بلاغتها أنّها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيّها برهانها"[xiii]. وإذا تضمنت الكناية في الكلام رأيت محاسناً تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف، وإنَّ الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها مكشوفا عن وجهها ولكن مدلولا بغيرها كان ذلك أفخم لشأنها وألطف لمكانها[xiv]. وهي مما يتوارى أو يختفي بساتر، ويدلُّ على المقصود بلازم له، أو مقارن له، أو بطرف من أطرافه، أو نحو ذلك[xv]. لكل هذا وغيره كانت منزلتها عظيمة في البيان العربي.

ثانيا: كنايات عن أفعال الفهم والادراك

من شواهد هذا الفن البلاغي الرفيع في هذا الموضوع ما جاء في مطلع سورة يوسف في قوله تعالى {إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون}[xvi]، والكناية في لفظة (تعقلون) وقد كنّى بها عن الفهم والادراك والتدبر في معاني القرآن الكريم لكي لا يلتبس عليهم، ومنها أيضا ما جاء في قوله تعالى {ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين}[xvii] والرؤية هنا ليست هي الرؤية العيانية البصرية بل رؤية البصيرة؛ كناية عن تدبّر الآيات المتوفرة والأدلة المتحصلة، بتمحيصها وعرضها على العقل.

ونجد هذا الفن حاضرا في الآية القرآنية { ولكن أكثر الناس لا يعلمون}[xviii] التي تكررت في هذه السورة ثلاث مرات وظاهر اللفظ يشير إلى معنى العلم وهو ضد الجهل بشكل عام، لكنّه في هذه الآيات كنّى به عن غفلة "أكثر الناس الذين زهدوا بيوسف فباعوه بثمن خسيس، والذين صار بين أظهرهم من أهل مصر حين بيع فيهم، لا يعلمون ما الله بيوسف صانع، وإليه يوسف من أمره صائر"[xix] وكناية عن عدم إدراك لقدرة الله في تسيير الأمور بحكمته ورأيه، لتأتي أخيرا لصالح يوسف.

ووردت الكناية –أيضا– في قوله تعالى {وكأيِّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون}[xx] ففي جملة (يمرون عليها) المرور وارد لكن ليس هو المراد بل هناك معنى أعمق وأدق؛ متحصل في ضوء الكناية عن معاينة الآيات والاطلاع عليها والتفكر في مضامينها، و(معرضون) كناية عن تجاهل هذه الآيات وعدم أخذ العبرة منها وعدم التفكر فيها. وتردنا كناية أخرى في الآية {أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون}[xxi] فقد كنّى بالغاشية عن النقمة التي تلحق بهم فتحيطهم من كل جانب، وفي قوله تعالى { أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا أفلا تعقلون}[xxii]، فـ(يسيروا في الأرض) كناية عن العيش في هذه الدنيا وخوض غمارها والإفادة من تجاربها، و(ينظروا...) كناية عن الاطلاع على تجارب من سبقهم ومن ثم التدبر في عاقبتهم، و (أفلا تعقلون) كناية عن الادراك والفهم والتدبر في تجارب السابقين وأخذ العبرة منهم. وأيضا وردت الكناية في قوله تعالى {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}[xxiii]، ففي (أولي الألباب) كناية عن أصحاب العقول المدركة والأفهام الواسعة الذي يعتبرون من تجارب السابقين ويتعظون منها.

والكنايات في هذا الباب جاءت لكي توضح ضرورة التدبر في خلق الله وقدرته، والتدبرّ هو لمن اهتدى بسيرة الأنبياء وسار على نهج الأولياء وأخذ عبرة من تجارب القدماء، ومن خالف هذا النهج كان من المشركين أو الجاحدين المنكرين فضل الله.

ثالثا: كنايات المكيدة بيوسف

المراد به الكنايات عن مجموعة الأفعال التي صدرت من أخوة يوسف بحق أخيهم، وقد جرى التعبير القرآني بها من طريق الكناية وليس من طريق التصريح، وأول ما نجد من كنايات في هذا الموضوع ما جاء في الآية {اقتلوا يوسف أو اطرحوه

أرضا يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين}[xxiv] فقد كنّى بقوله (اطرحوه أرضا) عن إبعاده عن أبيه، وهو ما يحتمل الضرب أو تحقيق الإعاقة أو الإلقاء في الفيافي بما يكفي ليكون بعيدا عن أبيهم ويحقق لهم القربى من أبيهم ويكون لهم الوجاهة، أمّا قوله (يخلُ لكم وجه أبيكم) فكنّى به عن حصولهم على محبة أبيهم بعد إبعاد يوسف عنه، يقول الزمخشري "يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت منكم إلى غيركم، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إيّاها[...] وقيل يخل لكم يفرغ لكم من الشغل بيوسف"[xxv] وفي الآية نفسها نجد قوله تعالى {تكونوا من بعده قوما صالحين} وكنّى بهذا القول عن توليهم مقاليد الأمور بعد وفاة أبيهم وخلاصهم من يوسف.

ومن الكنايات في هذا الموضوع ما ورد في قوله تعالى {ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون}[xxvi] ففي (يرتع) كناية عن الاتساع في أكل الفواكه وغيرها حيث يوجد الخصب والسعة، بينما في (يلعب) كناية عن نوع محدد من اللعب وهو التسابق الذي يحتاجوه في قتال العدو وليس اللهو[xxvii]. ومنها ما ورد في قوله تعالى {قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذًا لخاسرون}[xxviii]، ففي (نحن عصبة) كناية عن كثرتهم فهم عشرة رجال وكونهم أصحاب قوة بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب. وفي (خاسرون) كناية عن هلاكهم وضعفهم وخورهم وعجزهم وأنّهم مستحقون أن يهلكوا لأن الذئب أكل بعضهم وهم حاضرون[xxix]. وفي قوله عز وجل {وجاءوا أباهم عشاءً يبكون}[xxx] والبكاء كناية عن حزنهم _ وإن تضمن فعلهم هذا مكرهم ومحاولة افتعال الحزن_ لأنهم دبروا هذه المكيدة. وقد يقول قائل: إنّ البكاء حاصل حقيقة فكيف تكون الكناية؟ فنجيب أنه حاصل نعم لكن المراد في النص القرآني بيان حزنهم وتوجعهم على فقد يوسف، وهو المعنى الثاني الملزوم، وفي الكناية المعنيان كلاهما واردان لكن الثاني هو المراد.

وتتوالى الكنايات في هذا الموضوع وتردنا أحداها في قوله تعالى { وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين}[xxxi] ففي قوله (وما انت بمؤمن لنا) كناية عن عدم التصديق بهم، لأنهم عنده ليس من أهل الصدق والثقة.

أما قوله تعالى {قالوا يا أيّها العزيز إنّ له أبا شيخا كبيرا}[xxxii] ففيه أنّ وصف أبيهم بـ (الشيخ الكبير) هو أمر واقع حقيقة، لكنّه كناية عن عدم قدرة أبيهم على تحمل فراق ولده بنيامين، وقد يهلكه هذا الخبر، وقد أوجعه وكاد يهلكه فراق ولده يوسف من قبل، ثم تردنا كناية أخرى في الآية {قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون}[xxxiii] فقد كنّى بـ (ما فعلتم) عن مجموعة الأفعال الشنيعة التي ارتكبوها مع يوسف ثم مع أخيه. والكناية هنا طريقة من طرق الايجاز والاختصار لأنّها بلفظ موجز عبّرت عن معان كثيرة.

واختصت كنايات هذا الموضوع بكشف حجم المكيدة التي دبّرها أخوة يوسف لأخيهم، لكي يبعدوه عن أبيهم وينالوا محبته ويكون لهم الوجاهة والولاية بعده.

رابعا: كنايات عن الحزن والوجع

وردت في سورة يوسف بعض الكنايات عن الحزن؛ حزن يعقوب على يوسف في قوله تعالى { وتولّى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم}[xxxiv] وفيه أن ابيضاض العين كناية عن الحزن الشديد والأسى على فَقْد يوسف ومن ثم سجن بنيامين بعيدا عنه، وفيه أيضا دلالة على ذهاب البصر جلّه أو كلّه، و"إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر[...] وما جفّت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب"[xxxv]، وفي هذه الكناية نجد المعنى قد جاء أوكد وأبلغ في الدلالة لأنه ذكر المعنى المقصود وهو الحزن مع الدليل القاطع على ذلك وهو ابيضاض العين، وهو لا شك أقوى من أن تذكر الحزن بشكل تقريري لكن بلا دليل.

وفي قوله {يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه}[xxxvi] والتحسس كنّى به عن شدة التزام الدقة في البحث عن يوسف وأخيه وتبيّن أخبارهما. وفي قوله تعالى {فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر}[xxxvii]، فالمسُّ وإن كان واردا

لكنّه هنا كنّى به عن إصابة مؤكدة ووجع كبير بسبب القحط، وكنّى بـ (الضر) عن الشدة والجوع اللذين لحقا بهم، والضرُّ مشتمل على هذين المعنيين وملازم لهما.

وتردنا كناية أخرى في قوله تعالى { وخروا له سجدا[...] ومن بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي}[xxxviii] فقد كنّى بـ(خرّوا) عن حالة الذهول والانبهار ومن ثم الخشوع أمام يوسف بوصفه ملكا والخضوع لشرفه ولاسيما وقد كشف أمرهم وأطلعهم على علمه بكل ما فعلوه به من مكائد. وهي كناية أيضا عن المقام الذي بلغه يوسف، لكنّه مع كل هذه المواقف كان ألطف وأرق من أن يصفهم بكلام جارح فجاء قوله تعالى على لسانه (نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) فكنّى بالنزغ عن فعل الإفساد والتفريق الذي فعله الشيطان بينهم إذ بث الفتنة والغل والكره في قلوب أخوته فجاروا عليه وظلموه وكادوا يقتلوه، لكن كانت إرادة الله أكبر من مكيدتهم.

والكنايات في هذا الموضع جاءت لغرض تأكيد المعنى بصورة أبلغ وأدق وأعمق. بفعل تأثيرها في النفوس وحسن تصويرها للمعاني بما يفوق ضروب الكلام الأخرى. وجاءت بألفاظ أسهل من لفظ المكنّى عنه. وصوّرت حجم الحزن الذي حلَّ بيعقوب بسبب فقده يوسف، وقد بقيت نفسه تنوح عليه.

خامسا: كنايات عن الجماع

في هذا الموضوع على وجه الخصوص نجد أن الكناية لا بد منها لغرض تجاوز التصريح بالألفاظ المباشرة، وهي مما يستحسن الكناية عنها بألفاظ غيرها، والكناية في أحد أغراضها "إرادة معنى بغير الاسم الموضوع له واللفظ المقصور عليه"[xxxix]. ونجد في هذا الموضوع مجموعة كنايات منها في قوله {وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب}[xl] فالمراودة في أصل معناها الحركة ذهابا وإيابا وهي هنا كناية عن كل فعل من الأفعال المشعرة برغبتها في الجماع معه وما يحتمل من أفعال المخادعة والاحتيال والترغيب التي تقدمها له، من عمل أو إشارة أو رمز أو أي حركة تغريه بالإقدام عليها وموافقتها في رغبتها باللقاء الحميمي معه، وفي قوله (التي هو في بيتها) كناية عن (زليخا)، وكأنّ الغرض من هذه الكناية صيانة الاسم المكنّى عنه وابعاده عن التداول بذكر ما يدلّ عليه. أما (غلق الأبواب) فكناية عن توفير الأجواء الملائمة لهذا الفعل، وقد قدّم هذا المعنى والمراد الظروف الملائمة للفعل مع تقديم الدليل عليه وهو غلق الأبواب وبذا تكون أعمق في الدلالة. وقوله تعالى {ولقد همّت به وهمّ بها}[xli] وفيه كناية عن وصولهما إلى مرحلة أقرب إلى فعل الجماع، بمخالطة كل واحد منهما الآخر.

وتردنا الكناية في قوله تعالى {واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلّا أن يسجن أو عذاب أليم}[xlii] وفيه كنّى بـ (سوءا) عن فعل الجماع الذي رغبت به وسعت إليه . ونجد الكناية في الآية {وإن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين}[xliii] إذ إنّ القد من الأمام كناية عن كون يوسف هو المعتدي، بينما في قوله: {وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين}[xliv] فإنّ القد من الدُبُر كناية عن كونه بريئا، وإنها هي المذنبة، وفيها كناية عن كون الرغبة في الجماع قد تملكتها. وميزة الكناية هنا أن المضمون قد قيل مع دليله، وبذا يكون المضمون مؤكدا بعلة وليس بتقديم المعنى بلا دليل أو علة. وسمة الكنايتين هنا (القد من قُبُل، والقد من دبُر) أنّها أجمل عبارة وأعذب لفظا من المكنّى عنه، وجمال العبارات مما يقصد إليها.

وتتوالى الكنايات في هذا الباب ومنها ما جاء في الآية القرآنية {واعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطّعْنَ أيديهن}[xlv] فـ(المتكأ) هنا كناية عن توفير وسائل الراحة لهن بما فيها المكان ووسائد للاتكاء والقعود، وكنّى بـ(تقطيع الأيدي) عن شدة الانبهار والدهشة من جمال يوسف وسحره. وترد الكناية في آية قرآنية أخرى هي {ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين}[xlvi]، فقد كنّى بالخيانة عن ممارسة الحرام المتمثل بالجماع. وأيضا وردت نفس الكناية لكن بلفظ آخر في قوله تعالى {وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربي إنّ ربي غفور رحيم}[xlvii] فقد كنّى بلفظ (السوء) في هذا الموضع –تحديدا وليس مطلقا– عن الجماع.

والكنايات في هذا الموضع فاعلة في مواضعها، مفيدة من جهة الابتعاد عن التصريح بالألفاظ المباشرة في إتيان النساء واستبدالها بأخرى؛ ورد منها في القرآن الكريم الكثير من قبيل "المجامعة والمواقعة والمباضعة والمباشرة والملامسة والمماسة والخلوة والإفضاء والغشيان والتغشي، كل هذه الألفاظ مذكورة في القرآن"[xlviii] كما قد كنّى في مواضع كثيرة في القرآن عن هذا الفعل بالرفث في قوله تعالى {أحلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم}[xlix]، وبالملامسة في قوله { وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء}[l]. ومن شأن العرب "استعمال الكنايات في الأشياء التي يستحى من ذكرها قصدا منهم للتعفف باللسان"[li]. وإجمالا لا نجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز يأتي إلّا بطريق الكناية، وقد تنزّه القرآن عن كل لفظ فاحش أو مستهجن، وكنّى عنه بألفاظ دالة على المراد بأفضل لفظ وأجمله[lii] .

وبذا يكون أهم أغراض الكناية في هذا الموضوع إيثار الأسلوب غير المباشر لمراعاة مقتضى الحال، وكون المكنّى عنه مما يحسن ستره ويقبح التصريح به.

سادسا: كنايات عن التأهيل والتمكين

ومن شواهدها الكنائية ما ورد في قوله تعالى {وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث}[liii]، فظاهر الآية تفسير الأحاديث، بينما المكنّى عنه تعليمه الحكمة وإنزاله منزلة عظيمة، يقول الزمخشري "يبلغه الله مبلغا من الحكمة، ويصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بآبائه"[liv] واحتمل الزمخشري احتمالا آخر بقوله "ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسّرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها"[lv].

ومنها أيضا ما جاء في قوله تعالى {وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض}[lvi] فـ(إكرام المثوى) كناية عن توفير المكان الحسن والأجواء الملائمة ليوسف بينهم، يقول الزمخشري "اكرمي مثواه اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما، أي حسنا مرضيا، بدليل قوله إنّه ربي أحسن مثواي والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا"[lvii] ، وفي لفظة (مكّنّا) كناية عن تأهيله ومنحه منزلة رفيعة ومقاما عاليا يتيح له اتخاذ القرارات ومنها جعله ملكا له الأمر والنهي، وفي قوله عز وجل: {ولمّا بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين}[lviii]، ففي لفظة (بلغ أشدّه) كناية عن النضوج وبلوغ العمر الذي يتيح له ادراك الأمور وعواقبها. قال الطبري " بلغ منتهى شدته وقوته [...] وذلك فيما بين ثماني عشرة إلى ستين سنة"[lix]. وفي (آتيناه حكما وعلما) كناية عن بلوغه من النضج والكفاءة ما يؤهله أن يتولى الحكم وتصريف أمور الناس، لأنه بلغ مرحلة الفهم والإدراك. وفي قوله تعالى {لولا أن رأى برهان ربه}[lx]، كنّى بـ(رؤية برهان ربه) عن إدراكه وعن حضور الحكمة التي منحها الله له وكانت مانعا له من الانزلاق الى فعل الجماع. فهي لحظة تفكّر في عاقبة الأمر، وحضور الهداية الربانية في تلك اللحظة والخوف من عقاب الله الذي تجسّد في اجتناب المحارم.

ومن الكنايات في هذا الموضوع ما جاء في قوله تعالى { وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلّا ملك كريم}[lxi]. قد يلمس تشبيها بليغا في (إن هذا إلّا ملك كريم)، لكن في قوله (ملك كريم) كناية عن امتلاك يوسف صفات تفوق صفات البشر، بسبب غرابة جماله ومباعدة حسنه، وفيه كناية عن إنكارهن أن يكون مثله بشرا مستعبدا يشترى ويباع، وفي ذلك يقول الزمخشري: "كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء[...] وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس من الماء عليها"[lxii]. ويبينّ القزويني في كتابه الايضاح غرض الكناية في هذه الآية بأنّها تحتمل "التبيين والتأكيد: أما التبيين؛ فلأنه يمتنع أن يخرج من جنس البشر ولا يدخل في جنس آخر فإثبات الملكية له تبيين لذلك الجنس وتعيين، وأما التأكيد؛ فلأنه إذا كان ملكا لم يكن بشرا"[lxiii]. لذا يمكننا القول أنّ الكناية هنا جاءت لغرض بيان حال يوسف وتعظيم شأنه من خلال وصفه بحسن الخلق وبهاء المنظر.

وتتنوع الكنايات في هذا الموضع بألفاظ أخر منها في الآية القرآنية {قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم}[lxiv] فتعبير (خزائن الأرض) كناية عمّا تثمره الأرض من محاصيل زراعية وتدبير شؤون حفظها وتوزيعها وادخار بعضه لمواسم القحط. ففي قوله تعالى {وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء}[lxv]، وقد شرحنا الكناية بلفظ (مكّنّا) مسبقا ، ونجد في تعبير (يتبوأ منها حيث يشاء) كناية عن منحه الحرية المطلقة في اختيار أي مكان منزلا له ومقرا لعمله.

وغرض الكنايات في هذا الموضع تعظيم مكانة يوسف وتفخيم شأنه بمنحه القدرة على فهم الأمور وتحليل الأحداث وتأويل الأحلام وتفسيرها وتأهيله لمواجهة الصعاب ومنحه الحكمة والعلم وتمكينه من التصرف بما يلائم حياة الناس وتدبير شؤونهم.

سابعا: كنايات أخرى

وردت كنايات في مواضع أخرى غير التي أدرجت في عنوانات سابقة، منها ما جاء في الآية {وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين}[lxvi] إذ في (دراهم معدودة) كناية عن قلة الثمن ونقصانه بشكل ظاهر فهو دون قيمته، بدلالة (بخس) وهو ناقص القيمة وبدلالة (دراهم) فهي تُعدُّ عدا لأنها قليلة، ولأن الكثيرة يمتنع عدُّها بل يعمد إلى وزنها وزنا[lxvii]. وقيمة الكناية هنا أنّها عبّرت عن المعنى بدقة لا يؤديها اللفظ المباشر كأن تقول مثلا (دراهم قليلة) لأن القلة قد يختلف في تقديرها بين فرد وآخر.

وفي قوله تعالى {واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب}[lxviii] وهي كناية عن سيره على نهج آبائه وأجداده المعروفين بسيرتهم المشرقة، وفي قوله تعالى {ما تعبدون من دونه إلّا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم}[lxix] ففي (سميتموها) كناية عن كونها من فعلهم وصنع أيديهم. وفي قوله تعالى {وقال للذي ظنّ أنّه ناج منهما اذكرني عند ربك}[lxx] ففي (اذكرني عند ربك) كناية عن ذكر الرجل الوسيط محامد يوسف وفضائله وظلامته بين يدي الملك وكونه محبوسا بغير جُرم عسى أن يفرج عنه. وغرض الكناية هنا إيضاح المكنّى عنه بما أتاحه المكنى به.

ثامنا: فاعلية الكناية في السورة

مما سبق رأينا فاعلية الكناية متنوعة نجدها متجسدة أحيانا في التبيين والتأكيد وتكثيف المعاني وبلاغتها، وأحيانا أخرى في الستر والخفاء، ويرى علماء البيان "أنّ الكناية أدخل في إفادة المعاني من تلك الصرائح الموضوعة، وذلك لأن دلالة هذه الأمور على ما تدل عليه، إنما كان دلالة باللازم والتابع، ولا شك أنّ الدلالة على الشيء بلازمه أكشف لحاله، وأبين لظهوره، وأقوى تمكّنا في النفس من غير ما ليس بهذه الصفة"[lxxi] . وهم مجمعون على أنّ "الكناية أبلغ من الإفصاح بذلك المعنى المكنى به عنه، وأعظم مبالغة في ثبوته"[lxxii] . لأنك تقدم المعنى المراد بإثبات شاهده وإقامة برهان على صحته ، فيكون أبلغ من اثباته بلا حجة. والسبب في ميزة الكناية على التصريح "أنّ كلَّ عاقل يعلم – إذا رجع إلى نفسه– أنّ إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوة من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا"[lxxiii]. وهنا تتجلى بلاغة الكناية على التصريح، وليس المراد أن الكناية تفيد زيادة في أصل المعنى لا يفيدها غيرها، إنما المراد أنّها تفيد تأكيدا لإثبات المعنى، لا يوجد في سواها[lxxiv] . وهذا مظهر مهم من مظاهر بلاغتها ورقيها وتميزها عن ضروب الكلام الأخرى.

فبعض الكنايات في سورة يوسف جاءت وهدفها وجوب التدبّر في قدرة الله على خلق السموات والأرض ووجوب الإفادة من تجارب الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين، وبعضها بيّنت حجم المكائد التي حاكها أخوة يوسف أو امرأة عزيز مصر به، وكيف أنجاه الله وأعزّه وأكرمه. وصوّر بعضها حجم الحزن الذي لقيه يعقوب لما حلّ بيوسف بسبب مكيدة أخوته به، ودلّت بعض الكنايات عمّا يستحسن الكناية عنه والابتعاد عن التصريح مراعاة للحياء ومراعاة للنفوس في موضوع اتيان النساء أو الاقبال عليهن، ودلَّ قسم منها على تمكين يوسف وانزاله منزلة عظيمة بعد كل ما جرى عليه حتى صار له الأمر والنهي، وغير ذلك.

ولقد دلّت المعاني الكنائية الموجودة في القرآن عامة وفي سورة يوسف خاصة على توخي القرآن الجوانب النفسية ومراعاتها، واحتراما لأدب النفوس، ودلّت أيضا على قيمة الكناية في التعبير القرآني، وأنّها تشغل مكانة عالية بين الأساليب[lxxv] . وأن من

ميزاتها في الخطاب القرآني الايجاز في التعبير، فالكلمة الواحدة تحمل في طياتها كثيرا من المعاني، وقد تضعها في صور حسية ملموسة تروق القارئ وتبهره، لأنها تظهر الخفي جليا، فكانت منزلتها عظيمة بين الأساليب البلاغية الأخرى.

هوامش البحث

[ii] ينظر: لسان العرب: مادة (كني)

[ii] ينظر: م . ن : مادة (كني)

[iii] دلائل الإعجاز: 66

[iv] عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 2/ 206

[v] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 3/ 50

[vi] البيان والتبيين : 1/ 115

[vii] ينظر: الرسائل، الجاحظ: 1/ 307

[viii] الرسائل، الجاحظ: 3/ 140

[ix] ينظر: علم البيان: 226

[x] ينظر: علوم البلاغة – البديع والبيان والمعاني: 251

[xi] التذكرة الحمدونية: 8/ 278

[xii] ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 1/ 219

[xiii] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 293

[xiv] ينظر: دلائل الإعجاز: 235

[xv] ينظر: البلاغة العربية: 2/ 136

[xvi] يوسف /2

[xvii] يوسف/ 35

[xviii] يوسف من الآيات/ 21 و 40 و 68

[xix] جامع البيان في تأويل القرآن :237و240

[xx] يوسف/105

[xxi] يوسف/ 107

[xxii] يوسف/109

[xxiii] يوسف/ من الآية 111

[xxiv] يوسف/ 9

[xxv] الكشاف/ 447

[xxvi] يوسف/12

[xxvii] ينظر: الكشاف: 448

[xxviii] يوسف/ 14

[xxix] ينظر: الكشاف: 449

[xxx] يوسف/16

[xxxi] يوسف/ من الآية 17
[xxxii] يوسف/ من الآية 78
[xxxiii] يوسف/89
[xxxiv] يوسف/84
[xxxv] الكشاف: 497
[xxxvi] يوسف/من الآية 87
[xxxvii] يوسف/ من الآية 88
[xxxviii] يوسف/ من الآية 100
[xxxix] البصائر والذخائر: 2/ 59
[xl] يوسف/ من الآية 23
[xli] يوسف /من الآية 24
[xlii] يوسف/ 25
[xliii] يوسف / 26
[xliv] يوسف/ 27
[xlv] يوسف/ من الآية 31
[xlvi] يوسف/52
[xlvii] يوسف/53
[xlviii] التذكرة الحمدونية : 8/ 281
[xlix] البقرة/187
[l] المائدة/ من الآية 6
[li] التذكرة الحمدونية: 8/ 279
[lii] ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 144
[liii] يوسف/من الآية 6
[liv] الكشاف/445
[lv] الكشاف/ 445
[lvi] يوسف/ من الآية21
[lvii] الكشاف: 453
[lviii] يوسف/22
[lix] جامع البيان في تأويل القرآن: 222/12
[lx] يوسف/24
[lxi] يوسف/ من الآية31
[lxii] الكشاف: 464/2
[lxiii] الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 114
[lxiv] يوسف/55
[lxv] يوسف/من الآية 56
[lxvi] يوسف/ 20
[lxvii] ينظر: الكشاف: 453
[lxviii] يوسف/ من الآية 38
[lxix] يوسف/من الآية 40

[lxx] يوسف/من الآية 42
[lxxi] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 1/ 156 .
[lxxii] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 1/ 215
[lxxiii] دلائل الاعجاز: 207
[lxxiv] ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: 1/ 159
[lxxv] ينظر: الكناية والتعريض: (المقدمة): 52

المصادر والمراجع

**القرآن الكريم
*الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت. ط3 .
* البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تح: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط1، 1988
* البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق، ط1، 1996
*البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.
* تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن، ابن ابي الاصبع العدواني، تح: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الاسلامي، مصر.
* التذكرة الحمدونية، أبو المعالي بهاء الدين البغدادي،دار صادر،بيروت، ط1، 1417
* جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تح: احمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.
* جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، احمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت
* دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1955
* رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964 .
* الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423
* عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت.
* علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1982 .
* علوم البلاغة – البديع والبيان والمعاني، محمد احمد قاسم ومحي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1، 2003
* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جارالله الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407

* الكناية والتعريض، ابو منصور الثعالبي، دراسة وشرح وتحقيق: عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1998

* لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، 1955

* المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تح: احمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.

* المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.